الفصل الأول

الطفولة والشباب

. . . . تقول سيمون دى بوفوار :

ـ كان أول ما انتشيت له حين عدت إلى باريس فى صيف سنة ١٩٢٩ حريتى . لقد حلمت بها منذ الطفولة عند ما كنت ألعب مع أختى . وكم كنت أحن اليها أيام التلمذة ، وفجأة ، وفى باريس ، ملكتها ـ حريتى . كنت أتحرك وأعجب لكل حركة أصدرها ـ أعجب من خفتى . وفى الصباح ، عندما كنت أستيقظ ، وحالما أفتح عينى ، كنت أجرى إلى صنبور الماء ، وأغتسل ، وأشعر بدبيب السعادة فى أطرافى ، والفرحة العارمة تكتنفنى ـ

ويستمع سارتر إليهـا ، ويهز رأسه مبتسما ومنتشياً ، ـ «سيمون .. أهذه حياتك أم حياتى التى تتحدثين عنها ؟»

* * *

كانت الحرية ـ دائماً وأبداً ـ مايسعى إليه سارتر ، خلال حياته كلها . . فى البيت ، حينما كان طفلا صغيراً ينتحى بركن

منه ويزوقه كما يحب ، ويرسل فيه من روحه وذوقه مايشتهى .. ثم يجلس منفرداً إلاّ من كتبه ، يقرأها وهو ممدد الساقين ، يشرب الشاى دون رقيب ، ويخط بقلمه الرصاص تحت ما يعجبه من جمل . . كان يقرأ ، ويكتب ، ويفغر فاه إعجاباً ، وكان لا يؤرقه فى جلساته تلك ، سوى حبه الشديد لأمه ، وأرقه الرهيف عليها . .

كان سارتر يحب أمه ، شأنه شأن كثير من العباقرة الذين نشأوا على حب أمهاتهم ، وألهمهم هذا الحب — سواء بحنانه أو بعذابه — فنهم وأدبهم ، وخلق منهم رجالا مرموقين ، ورواداً تسعى خلفهم الإنسانية . .

. . وقصـــة سارتر مع أمه ، تعود إلى يوم ٢١ يونيه عام ١٩٠٥ ، حينما ولد فى باريس ، منَ أب يعمل مهندساً بحرياً .

وتنحدر أمه من أسرة ألبرت شفتزر الطبيب الفيلسوف المعروف . وكان جده لأمه مدرساً للغة الألمانية ، وصاحب منهج تعليم اللغات الأجنبية . وفى أحضان هـذا الجد تربى سارتر إلى أن بلغ الحادية عشرة .

كان والده قد مات بالحمى فى الهند الصينية ، عند ما كان

سارتر فى الثانية من عمره . فسارتر لم ير أباه ، وهو لا يذكره ، وقد نشأ لا يعرف سلطان الأب ، وينعم بحريته ، دون الإحساس بسلطته الناهية الزاجرة المعاقبة . وكان جو الأسرة جواً كاثوليكياً ، ظل سارتر يتنفسه ، إلى أن انتقل إلى مدينة لاروشيل مع أمه . وكان انتقاله ذاك فى الحادية عشرة من عمره ، وبعدها بدأ مرحلة جديدة فى حياته .

واستمرت أم سارتر بعد وفاة زوجها بلا زواج ، ينعم ابنها بقربها ويرضع حبها ، حتى بدأ عهد الشباب . وكانت تجربته مع زوج أمه ، وهو مهندس بحرى كأبيه ، تجربة خصبة لا كتجربة بودلير مع « أوبيك » زوج أمه الضابط العسكرى الجاف الطباع .

وفى لاروشيل حيث يعمل زوج الأم ، تمرس سارتر بالحياة الريفية ، وكرهها ، وتمثل هذا الكره كثيراً فى كتاباته . وأغرق سارتر نفسه فى دراساته وقراءاته الخارجية ، حتى حصل على شهادة الأجريجاسيون ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا « اكول نورمال سوبيريير » . ولم يكن سارتر مبرزاً فى مادة الفلسفة بالذات ، عند ما التحق بتلك المدرسة العليا ، وحصل فيها فى امتحان القبول على درجة مقبول . وعند التخرج رسب ، وأعاد السنة ، ولكنه فى تلك المرة كان على

رأس الخريجين ، وبذلك صار سارتر مدرساً للفلسفة ، يعلمها فى المدارس الإقليمية ، والتحق مدرساً أول ما التحق بمدرسة « الهافر » الثانوية . والهافر ميناء فرنسى كلاروشيل .

وعاش سارتر تجربته الأولى فى هاتين المدينتين ، وكانت روحه تحلق فى آفاقها البعيدة مع قراءاته الكثيرة ، بينما كان جسده ملتصقاً بالحياة الريفية وقيم المجتمع البورجوازى الصغير . كان يكره مهنة التدريس كراهيته لحياة الريف ، وقدر عليه أن يظل مدرساً لفترة .

ولم يكن سارتر بالجذاب ولا القوى البنية بل قصيراً ربعة . ولقد ظل يحس النقص من جراء قبح وجهه ، وهندامه المشعث ، رغم أنه لم يحاول يوماً أن يصلح منهما . وكان يتأمل وجهه فى المرآة ويقول عنه : « إننى كلما تمعنت فى هذا الوجه خرجت كما دخلت : لا أفهم شيئاً البتة منه . وجوه الناس الآخرين لها معنى وتعبر عن شىء ، إلا هذا الوجه وجهى ، فأنا لا أعرف هل هو وجه مليح أم قبيح . ربما كان قبيحاً ، فالناس تقول لى ذلك . ولكن لست متأكداً . وحتى لو كان قبيحاً فما أهمية ذلك بالنسبة لى . »

حقيقة ربما يكون للوجه تأثير كبير فى حياة صاحبه ، ولكننى لم أعرف وجهاً جميلا أوحى لصاحبه بفن وأدب

وفكر كما توحى الوجوه القبيحة لأصحابها من أهل الأدب والفن والفكر . وما تأملت يوماً مفكراً عبقرياً إلا ووجدته يتمتع بوجه ورأس يبعثان التأمل والتفكر فى نفس وعقل من يشاهدهما لا الإحساس بالجمال . وفارق بين أن تنظر إلى بناء مهيب لتتأمل عبقرية تركيبه ، وبين أن تنظر إلى وردة تبهرك منها ألوانها ورائحتها ودقة تركيبها وجمال تناسقها .

ولكن أن تتأمل وجوه الناس شىء ، وأن تتأمل وجهك أنت شىء آخر . وربما كان من المستحيل أن تقرأ وجهك وتفهمه . وربما كان من المستحيل أن تقرأ هذا الوجه لأن غيرك لا يقرأه لك . فالناس الذين يحيون فى المجتمعات يتعلمون كيف يمكن أن ينظروا فى المرايا ، وأن يتعرفوا فيها إلى أنفسهم ، وأن يروا أنفسهم فيها كما يظهرون للمقربين إليهم . وما كان لسارتر أن يرى نفسه فى أصدقائه ، ففى هذه المرحلة من حياته كان قلبه خلواً من الصداقات ، إلا صداقة واحدة كان يكنها لإنسانة استلطفها فى مدرسة المعلمين ، وصادقها دون الجميع . وكان يشاركها قراءاتها ، ويشركها معه فيما يقرأ ويفكر . ولكنه ما كان يترك نفسه على سجيتها معها ، فقد كان يبقى من عقله جزءا ينفرد به ، ويحيا معه فى معزل عن الجميع ، حتى عن سيمون دى بوفوار ، هذه الإنسانة التى آثرها بصداقته .

ولقد تعرف سارتر على سيمون فى مدرسة المعلمين العليا ، ونشأت بين الاثنين علاقة محبة قوية ، لم تكن تؤدى فى النهاية إلا إلى الزواج . . وكانا يتزاوران خلسة ، ويسعيان إلى اللقاء فى الريف ، حيث تقصر العيون والألسن عن أن تتعرف إليهما ونلوكهما .

كانا فى هذه الزيارات الريفية يفترشان العشب ، ويتحادثان ويقرءان ، ثم يتناقشان ، لتصمت سيمون ، ولتحسن الاستماع ، ولتتمنى لو ظل سارتر يتحدث إلى ما لا نهاية . وفى الإجازات كان سارتر يزورها ، ولكن أبويها ازورا عنه ، وفى يوم تقدم منه أبوها وطلب إليه الرحيل ، وعدم المجىء مرة أخرى .

وفى باريس كان المحبان الصغيران يلتقيان بعيداً عن قاعات المحاضرات ، ليتمشيا وليتابعا الكلام عن أنفسهما وحياتهما ، ومشروعات كتبهما التى كانا يزمعان إخراجها ، أو يتمنيان لو يخرجانها . وكانا يحددان كل شىء ويرسمان كل سطر . . .

كان سارتر يعيش ليكتب ، وكان قد قطع على نفسه عهداً ، بأن لا يحمل أى شىء يعوقه عن مصيره هذا الذى اختطه لنفسه . بينما كانت سيمون تكتب لتعيش ، ولتنزع وعيها من الزمن ومن العدم ، ولتفتحه على آخره لروعة الحياة .

وكان عهدهما هذا يفرض نفسه تمام الفرض على حياتهما . وكانا يحسان بحتمية مصيرهما ، يحدوهما أمل « كنتى » فى تحقيق ما يصبوان إليه . وكان رائدهما المثل الذى يقول — إذا كان هذا هو مايجب فأنت تستطيع إنجازه — كان التفاؤل يشيع فى نظرتيهما ويملأ صدريهما . وكانا واثقين من العالم رغم أنهما كانا ضد القيم الاجتماعية والوضع الاجتماعى السائد ، أفكان هذا التضاد وتلك المعارضة ترهقهما وترسل الاضطراب فى فكريهما؟ أبداً . . فرغم كل شىء الإنسان قادر ، وبيده ظروفه ، وفى استطاعته أن يصنع نفسه من جديد . إذن فعملية الخلق هى عملهما ، وما كان لهما أن يشاركا فى الحياة بطريقة غير طريقة الخلق عن طريق الكتابة .

وكان سارتر فى بداية حياته يكره السياسة ، ويرفض أن يشارك فيها ، حتى أنه عند ما دعى إلى الإدلاء بصوته ، فى انتخابات عام ١٩٣٥ النيابية ، رفض مجرد الذهاب إلى مكان الانتخاب ، وكان وقتها فى الثلاثين من عمره . كان يكره كل ما اصطلح عليه مجتمعه ، وكان يرفض قيم البورجوازية ، ويرى فيها معوقاً للحضارة .. وسارتر من هؤلاء المفكرين الذين عاشوا فكرهم ، ولقد كره البورجوازية ، وكان الزواج قيمة من قيمها ، فكرهه رغم حبه الشديد لسيمون دى بوفوار . وكانا فى استطاعتهما

أن يتزوجا ولكنهما رفضا ، لأنه ما كانت بهما حاجة لإنجاب الأطفال ، ومن ثم فلم تكن بهما حاجة لتوثيق زواجهما الروحى.. كانا ضد الزواج والأسرة والاحترام الأسرى، وغير ذلك من المصطلحات والمنظمات والعواطف البورجوازية . واستمر حبهما كأقوى ما تكون العلاقة بين اثنين ، وزاملا بعضهما طوال الحياة فى صحبة جميلة . وسيمون نفسها تصف هذه العلاقة فى كتابها « عنفوان الصبا La Force de L'âge » الصادر عام ١٩٦٠ — لم تكن سيمون نفسها من عائلة تقل كثيراً عن عائلة سارتر ، ولكنها كانت تلتقى معه فى صفات كثيرة ، فهما متقاربان سناً ، وسارتر يكبرها بثلاث سنوات فقط . وفى الدراسة تزاملا معاً ، وتخرجا معاً ، وخرجا للحياة معاً وكل منهما مدرس ، ولم يفترقا لمدة طويلة إلا عند التعيين . وأرقهما الفراق ليعودا إلى بحث الزواج ، ولكنهما ينتهيان إلى رفضه الآن وإلى الأبد .

كانت كراهية الزواج مظهراً من مظاهر كثيرة لعقلية تتأبى على العادى والعامى . ولم تكن كراهية الزواج حتى الآن سوى انفعال أخلاقى لم يتبلور بعد ويأخذ شكله السياسى . ولم يكن سارتر يعرف أنه فى يوم من الأيام سيدخل السياسة من أوسع أبوابها . وما كان هذا تشاؤماً منه ، فقد كانت اتجاهاته

حتى الآن تتسم بالتفاؤل ، وكان يؤمن وقتها بأن كل الأنظمة القديمة لابد لها يوماً أن تبلى وتندثر ، وتعصف بها رياح الزمن ، وأن النصر لابد معقود للاشتراكية . وتصف سيمون هذه المرحلة من حياتهما فتقول :

ـــ كنا نثق فى أنفسنا وفى العالم من حولنا . وكنا لانؤمن بمكونات المجتمع فى شكله الحالى ، ولكننا لم نحس يوماً بالمرارة تجاهه ، بل بالعكس كنا شديدى الإيمان والثقة فى المستقبل ، فالإنسان لابد من تكوينه من جديد ، وهذا التكوين الجديد هو رسالتنا ، ومن أجل ذلك لم نكن نحفل بالقضايا الاجتماعية الوقتية ولكننا كنا نجد أنفسنا فى صراع مع المشاكل التى تعترضنا والتى لم نسع إليها يوماً ، بل التى كان يتصادف أن تعن لنا فى طريق الحياة ..

كانت إذن هذه هى نظرتهما الأولى ، ولكن سارتر وسيمون بشران ، يسرى عليهما ما يسرى على غيرهما من قوانين التطور والتغير والصيرورة ، وقد اختلفت نظرتهما بعد ذلك ، وجاء عليهما حين من الدهر آمنا فيه بأن التدخل السياسى مرتبة عليا من مراتب الواجب ، ومسئولية الأديب والفيلسوف حيال نفسه ، وحيال مجتمعه ، وحيال عصره وحيال التاريخ ، بوجه عام . ولكن سارتر وقتها كان موجها اهتمامه الأكبر للفلسفة ، يستقرؤها

غوامض الكون . ويستنطقها نواميسه ، ويستدل بها على مجريات الأمور المستقبلة . ولقد ساعدته على ذلك نشأته الأولى بين جد يتقن الألمانية ، لدرجة تعليمها للغير ، ووضع المناهج لذلك ، وإبداع طرق تدريسها ، وبين مربية ترجع بأصلها إلى الجنس الألماني . ومن هنا تعلم سارتر الألمانية ، وكانت وقتها هي وسيلة أهل العلم لدراسة الفلسفة فقد كانت الفلسفة ، ألمانية فى ذلك الحين ، وكانت جامعاتها فى ألمانيا تشع بالمذاهب الفكرية ، وتبرق فى قاعاتها أسماء هيجل وفخته وشبنجلر وشيللر ونيتشه وشوبنهور وهسرل وهيدجر — عشرات الأسماء الألمانية مقابل اسم أو اسمين فى فرنسا أو انجلترا أو أمريكا — فراح سارتر يرشف من معين الثقافة الألمانية . ولكنه كان مايزال يحس بالحرية كشيء جذرى — وكان يجهل وزن الواقع على جميع مستوياته — كان يؤمن بالحرية إيماناً مائعاً غير مفهوم ، ولكنه آمن بها زمنا طويلا وبقوة جارفة — كانت كلمة الحرية تخفى تجربة حقيقية فى كل نشاط يمارسه هو وسيمون . وفى كل تجربة كانت تتكشف حرية ما ، ولم تكن الحرية لتتكشف بصورة أروع وأكمل وأشمل بقدر ما كانت تتكشف فى التجربة الفكرية — التجربة الفكرية تجربة فريدة ، مجال تكرارها ضيق . والتكرار حد للحرية ، لأنك فى التكرار تدخل النمط من جديد ، وهذا يستتبع دخولك فى

التصرف نفسه ، فالتجربة المتشابهة توحى بتصرف متشابه . أما فى الفكر فقلما تتشابه التجارب ، ومن ثم فأنت تحيا حريتك فى كل مرة ، وتمارسها كأروع وأخصب ما تكون الممارسة .

وكان سارتر يعيش ليجرب ، ويمارس ، ويفهم ، ويتكشف . كان حاله أشبه بحمامة « كنت » فالريح بدلا من أن تعيقها تسند تحليقها . وما كانت التجربة مهما كانت نتائجها إلا شيئاً رائعا غنيا يعطى ولا يأخذ . غير أن المعطيات ما كانت إلا كنتيجة لمجهود لا كتكييف له . كان سارتر يقول لنفسه دائما إنه لا يمكن أن يقف ، وكان يعتز بهذا الترفع والكبر الروحى الذى ما كان سارتر يمكن أن يكون نفسه لولاه . فكل عبقرى لا بد له من كبر روحى ، والعمل الخالق المنوط بالعبقرة لا بد له من جرأة ، واعتزاز بمائله ، وإلا فلن يتحقق ولن تكتب له الحياة . والعبقرى فى عمله كالمغامر — لن يحقق تجربته ما لم يكن سيد نفسه المطلق ، وسيد غاياته وأهدافه ووسائله . وكان سارتر يريد أن يعرف وأن يصل . وتخرج من الجامعة ليجد نفسه حتى قمة رأسه غارقا فى أمله وتحقيقه . وكانت حياته تحقق ذاك الأمل بدقة شديدة ، حتى ليبدو له أن كل سطر فى حياته هو الذى اختاره وهو الذى كتبه ، وسيؤدى به إلى السطر التالى .

ولقد عاش سارتر ولم يعرف سلطان الأب ، وأحب أمه ،

ولكنه لم ير فيها تجسيداً للقانون . لقد راح يضرب فى الحياة بمنطق ديكارتى ، يأخذ منها مايوافق عقله ،ويرفض منها مايتأباه هذا العقل . ومن ثم فلم يشعر باضطراب فكرى أو عتامة ذهنية . كان يعتقد أنه وعى مجرد وإرادة صافية ، ولذا أباح لنفسه أن يداين كل شىء ، وأى شىء ، وأن يتخطى بنظره الماضى والمستقبل ، وينتقد ذاته ويدينها ، ويمشى فى طريقه بلا إكراه ، متخطياً العقبات إن وجدت . وما كانت هناك عقبات أمامه فيراثه الضئيل عن جدته لأبيه يكاد يكفيه ، ما دام عازفاً عن الكماليات ، لا يأبه لها ولا يهتم بأمرها . ولكنه ما كان ناسكا ، لذلك فقد كان يملأ راحتيه من الحياة كلما سنحت له الظروف ، بل وسعى إليها يكبش منها ويتنفس عبيقها بعمق — فما كانت هناك ممنوعات فى حياته ، ومن ثم فلم يكن يحس أبداً بأن هناك داع للتفريط أو الإفراط ، فالحياة لا تأتى إليه خلساً أو ليال ، ولكنه يسعى إليها ، ويأخذ منها ، متى شاء ، وبمزاجه وإرادته الكاملة . وما كان يعوزه إلا الطعام أو الملبس وحتى هذا ما كان يأبه لها ، ومن ثم فلم يكن يحس بأى عوز . كان يكفيه أن يتناول طعامه فى مطعم دوموری ، ليشرب بيرته الثقيلة، ويأكل كرنبه المخمر . أو يكتفى بالجلوس فى حجرته، ويتناول الخبز بالكبدة ، والإنصات لسيمون وهى تقرأ أو تتعابث ،

وضوء المصباح الهزيل يرسل نوره راسما ظلالها على الأطباق وأرغفة الخبز الطرية . وعند ما يجن المساء يسير متريضاً حتى «الفلستف» أو «الكوليجين» ليعب من الخمر الرخيصة عباً . وكان سعيدا منتشيا يحس بالحياة تعدو فى أوصاله .

كانت أيامه أعيادا ، وكان كثيرا ما يحتفل بهذه الأعياد على طريقته ، فيتناول دجاجة كاملة فى « الفينيكس » على أنغام الموسيقى الشعبية . وعند ما كان يخرج فى المساء الموغل ، والشوارع فى أضوائها المحتضرة ، والحانات تتفتح أبوابها تباعا ، لتخرج مخمورها وعشاق الليل ، كان سارتر يمر فى طريقه براكبى السيارات الرولز والباكار ، ويتأمل هياكلها اللامعة وأصحابها المنشيين ، ببياقاتهم العالية الشديدة البياض ، وقبعاتهم ذات الشكل الخاص ، وأحذيتهم المدببة ذات الكعوب المرتفعة والجلد البراق ، والسيجار فى أفواههم أوالبايب ، وسيداتهم محملات بالجواهر وفاخر الثياب — ويبتسم سارتر فهؤلاء ظاهرة لا بد منها فى فترة من فترات التاريخ ، ولكنهم فى طريقهم إلى الإندثار كظاهرة . كان يرقبهم فى خروجهم من «ماكسيموس» و «فوكس» بشفقة ساخرة وينبذهم من فمه وعقله كالثفل . كان وجودهم معدوما عنده ، وترفهم شىء لم يحس بحاجته إليه يوما من الأيام — حقيقة كانت فى حياته

مجالات للترف لواعتبرناها ببعض الأوساط ، ولكن ترفه ليس كترف الأثرياء — وفقره كذلك لم يكن كفقر الفقراء . كان يكفيه أن يأكل خبزا وملحا ، وكأس الخمر أمامه كالمسيح ، ويسير على قدميه حتى أبواب «الكوميدى» و«الأوديون» ، يشهد مسرحية جديدة ، ويجلس فى البلكون ، يحس بأنفاس الجمهور الحقيق وعرقه ودموعه ، ثم يقف فى الطابور الطويل ينتظر بالساعات ، ليقطع تذكرة يشهد بها هذا الموسيقى أو ذاك المايسترو ، وليستمع إلى بيتهوفن الإلهى ، أو موزار ، ويعيش ليشنف أذنيه معفاجنر وعبقريته . ويؤلف أثناء ذلك ، ويكتب القصيدة والزجل الشعبى وأغانى الأطفال وأبيات الغزل والهجاء ويلحنها ، ويغنيها لأصدقائه وهم خارجون تلفظهم ابواب المسارح ويطوحهم نسيم الليل ، وتلعب برؤسهم الخمرة الرخيصة . وأحيانا كان سارتر يتكلف فى ملبسه ، ليأخذ سيمون ويراقصها فى الكوبول ، أو يدعوها للسينما فى الشانزليزيه . . وبالاختصار كانا سعيدين . . ولكنهما كانا للاسف بوجوازيين . .

وكان سارتر بورجوازيا هروبياً ، يريد أن يهرب من حقيقته ، وينسى نفسه ، وينسى أنه ينفق من ثروة جاءته من ميراث ، وينسى أنه عاطل بلا عمل ، غير منتج فى الحياة ، يعيش على نتاج الآخرين ويتمتع به . . كان كدبور العسل الذى يحيا

على عسل النحل المنتج الحزين ! ! ولماذا كان يشيح بوجهه عن الرأسماليين والأرستوقراطيين ؟ كان فى هذه المرحلة من حياته بورجوازياً ـ لم يكن يريد أن يلغى وجود هؤلاء إلا ليحل محلهم البورجوازيين ـ ما كان سارتر وقتها يدرك إلى أى شاطىء سيرسى ضميره الاجتماعى . ولكنه أخذ بروعة تفكير ماركس، وبدأ يداعب اعتناق الشيوعية ويغازل الحزب الشيوعى . وحاول كثير من أصدقائه الشيوعيين استمالته إليهم ، ولكنه كان يعلى من قدر حريته ويضعها فوق كل شىء

ومع ذلك ظل ينظر إلى مكسيموس ، ويتأمل هؤلاء العامرة جيوبهم بالمال ، كما لو كانوا حشرات من نوع غريب تثير فيه حدس العالم وشبق العارف . كان يبصق عليهم ، ويعلل نفوره بأن العمال كانوا يقاتلون ، بينما هؤلاء يسكرون ، والعمال لا ناقة لهم ولا جمل فى الحرب العالمية الأولى ، لأنها حرب رأسمالية ـ حرب لإيجاد الأسواق ، وتعديل توزيع الثروة بين الأغنياء ـ الدول الكبرى ـ وكان يقول من بين أسنانه : أية نتانة ! ولكنه كان يشعر بالانزعاج دون أن يعرف السبب . كان يمشى بخطى صغيرة وهو يتهادى . وكان الناس يبدون له رخاص العود ، وكان يخشى أن يصدمهم . ويلح على عقله السؤال الخالد : لماذا ؟ لماذا ؟

لكن لماذا يتساءل عن السبب ؟ لماذا يحمِّل عقله فوق ما يحمل ؟ لماذا لا يكون كالآخرين ؟ لماذا هذا الترف العقلى بدلا من سواه ؟ لماذا يظل مستيقظاً بدلا من أن ينام فى اليقين؟ ويلجأ إلى التحليل النفسى — إلى فرويد — لكن هل يشفيه التحليل النفسى أو فرويد ؟ ! آمن بأن الأمراض العقلية والحالات العصبية وأعراضها ، لها تفسيرات ترتد إلى طفولة المصاب . ولكن إلى هنا ويتوقف إيمانه . كان يرفض التحليل النفسى كمنهج لسبر أغوار الإنسان الطبيعى . وقرأ فرويد ، وغاص فى كتابه « تفسير الأحلام » ومحاضراته التحليلية ، وكتبه عن القلق ،والعقد . وجفل من رموزه ومذهبه فى تداعى الأفكار ، وذهل من « جنسيته » ورأى فيما تنسبه إلى اللاوعى من دور حيوى فى توجيه الأفراد سحقا لحرية الإنسان .

ومع ذلك فكان يلذ له إن أرهقه أمر ما ، وأرقه طويلا ، أن يتجاذب الحديث مع امرأة ، أو أن يضاجعها الفراش . وكان يحب فى بداية مرحلة الرجولة النساء كثيراً ويرغب فى تنوعهن ، ولايحب أن يرتبط بواحدة . كان يحب حياته حراً طليقاً .. وكان بعد كل مغامرة ينظر فى عينى سيمون ، ويتهدل جانبا شفتيه ، وتضع سيمون أصبعها حول ذقنه وترفعه ، وتنظر فى عينيه فيبتسم ابتسامة لا تحسن الخجل ، وليس فيها مرارة ، ولا تعرف

الوقاحة .. وتبتسم سيمون فيقول سارتر :

ـ حقيقة يا سيمون إننى أحبك .. إن ما بيننا لا يمكن إلا أن يكون الحب . هو حب بالضرورة ، ولكنى أيضا يجب أن أعرف الحب الآخر .

وكانت سيمون لا تلتزم هى الأخرى ، ولكنهما ما كانا يجرحان إحساس أى منهما . كانا لا يلتزمان دون إيلام لأى منهما . وكانا من نوع واحد . وكان تفاهمهما أبديا ، لا يعوض أية علاقة مؤقتة مهما كانت ثرية . وهل كان بوسعهما أن يحرما نفسيهما من تجارب ثرة ، وأحاسيس جياشة ، وعواطف رياتة ، وانبهارات جديدة ، واكتشافات ماهمة ! كان عالم الحب عالم الحسرات والحنين والمسرات . وكان ذلك كله متطلباتهما فى الحياة . ولكنهما كانا يكرهان أن يعذب أى منهما الآخر بوجوده . وكان لايجتمعان دائما . وأحيانا ما كان يهيم بهما المساء حتى ليطول بهما المسير فى أعماق الليل إلى الفجر ، وتأخذهما أقدامهما إلى الحقول المترامية على جدول رقراق ، ثم يتفقان على أن يبتعد كلاهما عن الآخر لفترة . .

ـ لنقل مثلا سنتين يا سيمون . .

ـ السنتان اللتان ستعمل فيهما مدرسا فى اليابان ؟

ـ نعم ويجب أن تخرجي أنت أيضا من فرنسا الأديب يجب أن يكون فى كل مكان ، وأى مكان . لتغب مدة سنتين ، ثم لنلتق فى أثينا مثلا بعد ذلك ، لنستأنف حياتنا المشتركة من جديد ، ولفترة . إننا لن نصبح غريبين أبداً ، وأبداً لن ينادى أحدنا الآخر عبثا ! !

ولم ينادِ أحدهما الآخر عبثا ! كان سارتر أكبر منها بثلاث سنوات ، ولكنهما كانا رفيق سفر متلائمين ، ذهبا معاً لاكتشاف العالم . وكانت سيمون تثق فيه ثقة تامة ، وتطمئن إلى صحبته ، واتخذت منه الحبيب ، والزوج ، والأهل ، والولد . وفى الوقت نفسه كانت تؤمن بحريتها ، ولكن الأم حرة ، وهى مع ذلك مقيدة إلى ابنها ، وتجد حريتها فى صحبة ولدها . والإنسان حر ، ولكنه ملتزم ببيت يبيت فيه آخر النهار ، وإنسانة يثق فيها ، ويطمئن إليها ، ويمارس حريته فى صحبتها . ولم تكن علاقة سيمون بسارتر ، وعلاقة سارتر بسيمون ، لتقلل من حريتهما ، أو تقديسهما للحرية ، يقلل من التصاقهما ببعضهما أو يفرق بينهما .

وهكذا عاشا سوياً ، حتى طلب سارتر لأداء الخدمة العسكرية . غير أن عينه وضعف بصره باعدت بينه ، ولحسن حظه ، وبين العسكرية بمعناها الصحيح . والتحق سارتر كعامل جوى بمحطة

أرصاد جوية ، يقيس طبقات الجو العليا المناسبة للطيران بواسطة بالونات . وهناك فى قلعة « سان سير » قضى سارتر مدة الخدمة العسكرية . وكانت سيمون تذهب إليه ، تزوره أربع أو خمس مرات أسبوعيا ، حيث يتناولا الطعام فى « سولاى دور » ثم ترافقه سيمون حتي منتصف الطريق إلى القلعة ، وتتركه عائدة لتلحق آخر قطار فى التاسعة والنصف ، ليعود بها إلى باريس .

وفى هذه الفترة تعرف سارتر إلى الكثيرين ، وعقد صداقات كثيرة . ولكن سارتر ما كان يحفل كثيراً بهم ، فقد كان جل اهتمامه منصبا على حياته هو وأفكاره هو . وكانت تضجره أفكار الآخرين . كان يحس بالغربة حينما يلتقى بالجماليين أو الماركسيين أو المناطقة ولكنه كان متفتح الوعى ، يفتح نفسه لآخرها على كل تجربة جديدة ، وفكرة جديدة ، وصداقة جديدة . ولكنه مع ذلك لم يكن يميل إلى التجارب التى تطيح بالرأس وتخفق القلب .

كان غيره ينظر إلى الأشجار والماء فينطلق لسانه بالنشوة والسحر ، وكان سارتر يستطيع أن يتحدث ربما خيراً منه ، ولكنه ما كان يشعر بالدافع إلى ذلك . كان سارتر من هذا النوع من أهل الفكر الذين لا يميلون إلى خفقات القلب ، والرعشات والنوخات ، وحركات الجسم المضطربة ، التي تتكلم

حديث اللسان . كان يقول عنها دائما إنها تنطفىء ولا يبقى منها شيء . وكان يعلق أهمية أكثر على ما كان يسميه التجريدات الانفعالية ، فالتعبيرات الجسدية كان يبلغها ولكن فى شكل مجرد ، وكان يظل منفصلا عن التعبير حتى يجسده فى كلمات وجمل . وكان من رأيه دائما أن الكاتب الذى لايحس لا يمكن أن يكتب ، ومع ذلك فلا ينبغى الاحساس أن يطغى على عبقرية الكتابة ، فالكاتب أو المفكر كالممثل ، إن لم يتمثل ويهضم ويحس ما يمثل ، لا يمكن أن يكون صادقا مع ما يمثله . وكذلك إن طغى إحساسه على سيطرته على نفسه ، جاء ما يقوله فجا مشوشاً . مضطرباً .

وفى هذه الفترة أيضا بدأ يحس بأن الخلق هو الإضافة إلى العالم ، وأنك لكى تخلق لا بد أن تكون مسئولا عما تخلق ، وأمام من تخلق ، فالخلق مسئولية تجاه الكاتب ، وتجاه المكتوب ، والمكتوب لهم . وكانت سيمون على خلافه ترى فى الفن هروبا من الحياة ، وكانت تؤمن بأن الفن لكى ينجز نفسه ، ويحقق ذاته ، لابد لخالقه من رفض الحياة والتنكر لها . وكثيراً ماكان سارتر يقف فى الطريق وفجأة يمسك بيد سيمون ويقول لها :

— سيمون ، عندى نظرية جديدة !

وكانت سيمون تنصت ، وأحيانا تشعر بالحيرة إزاء ما يقول ، وكانت لا تعى لماذا تحار . وكانت تتلمس الجواب فيما يقوله أصدقاؤهما عنه . كانت كثيراً ما تسمع هؤلاء الأصدقاء يقولون عنه أن به « سفسطائية خفيفة » . وكانت كلما عرض عليها فكرة ، ولم تعجبها ، راحت تبحث عن السفسطائية الخفيفة التى بها . وكانت كثيراً ما تجدها ، ومن ثم تروح تحطم له نظريته ، ولكنه فى عناده لم يكن يأبه لما تقول . وعندما كانت تصر ، وتقاوم ، يزداد عناده ، حتى ليلقى بكل منطق عرض الحائط ، ويصر على رأيه . والحق أن سارتر كان مزيجا من المتناقضات فى هذه الفترة ، التى لم يكن قد وجد فيها نفسه بعد ..

كان يكره الرأسمالية ، ولكنه ما كان ماركسيا . وكان يحب الحرية والفردية ، ولكنه ما كان فوضويا . وكان إنساناً يذوب رقة ، ويسيل ثقافة وذوقاً ، وحباً للمعرفة وللجمال والحقيقة ، ولكنه ما كان روحانيا . وكان مثاليا ولم يكن مثاليا ، وماديا وليس بمادى ، وعلميا ولا يؤمن بالعلوم . . ولكن ذلك كله ما كان يؤرقه . . المهم أنه يفكر ويحس ويعيش ، ويدخل تجربة ويخرج منها . . المهم أنه لا يفكر فى شكل مشكلة ولكنه يفكر . . والمهم أنه كان يخرج من يقين إلى يقين ! !

وكان الناس هم الذين يهمونه . وكان يتمنى أن يعارض علم النفس التحليلى الذى كانوا يدرسونه فى السوربون . كان علم النفس كما يراه نظرة تركيبية وليست تحليلية . وهذا ما اكتشفه عند ياسبرس . وهذه النظرة التركيبية تؤمن بالحدس فى العلاقات العاطفية . وكان ياسبرس يفسر مذهبه بالفينومينولوجية ، أو الظاهراتية . . وهنا بدأ سارتر يتعرف إلى فلسفة جديدة — هذه الفلسفة الظاهراتية — ويقرأ أحداس الناس وخطوط وجوههم ، ويؤمن بالفراسة . وبدأ يطالع بنهم نظرية الجشتالت . إذن فالفرد وحدة تركيبية غير قابلة للتجزئة . وسلوكه لايحكم عليه إلا بصورة إجمالية . وبدأ يرفض كلاسيكية الأخلاق ، وينادى بشعاره « العلم هو سطح الكرة ، والأخلاق هى مركز الكرة » . ومن ثم فكل مذهب أخلاقى يحاول فرض نفسه على الجميع باطل . والواجب والفضيلة باطلان ، لأنهما يفرضان نفسيهما على الجميع ويخضعان الفرد لقوانين خارجة عنه . وكان يرى أن الحكمة تقتضى ضرورة التوازن بين الحكيم وبين العالم ، توازنا فريداً وجماعيا . والحكمة لا تتجزأ ، ولاتكتسب قطعة قطعة : إنها إما أننا نملكها ، أو لا نملكها ، والذى يملكها لا يهتم إطلاقا لتفاصيل سلوكه .

وكان سارتر يضع نفسه بالطبع بين من أوتوا الحكمة .

ولم يكن يقبل إلا العواطف بنت ساعتها المثارة تلقائيا ، بموضوعاتها ، والتى تتجاوب مع مواقف معينة . وكان يقيم الإنسان على أساس ما ينجز : أفعاله ومؤلفاته ، لا على أساس ما يظن بنفسه أو يظن بطاقاته .

كان يعتقد أن حرية الاختيار عند الجميع ، ومن ثم فالإنسان مسئول عن سلوكه ، والإنسان هو أفعاله . وهكذا كان سارتر فى هذه المرحلة ، مثاليا بورجوازيا ، رغم أنه كان يرفض أن يكون ، أو يظن ، من المثاليين أو البورجوازيين .

ويتأمل سارتر هذه الفترة — فترة ما قبل رفع الستار ، والبداية الحقيقية للوجود السارترى ويقول :

— أنا لا أعجب لهذا الخلط . لقد كنا ضائعين فى عالم ، كانت تعقيداته تتجاوزنا . ولم نكن نملك من وسائل ، لنسلك خلاله سوى وسائل بدائية . . ولكن الرائع فينا أننا كنا نشق لأنفسنا فيه ، رغم ذلك ، طرقا ودروبا . وكنا كلما خطونا خطوة ، أطلت مظاهر صراعات جديدة ، تقذف بنا للامام نحو تعقيدات أجد . . وهكذا بعد سنوات وجدنا أنفسنا بعيدين جداً عن هذه البدايات الأولية . .

* * *

وفى « سان سيير » عاود سارتر الكتابة، وأخذ يتمرس على كتابة الشعر ، وكتب قصيدة بعنوان «الشجرة» . كانت الشجرة ذات معنى عميق لديه ، ومن ثم فقد عاود الكتابة عنها ، مرة أخرى ، فى قصته الطويلة « الغثيان » .

وكانت الشجرة مثار تأمل حقيقى بسبب تكاثر أغصانها ، تكاثراً لا مجديا ، يشير إلى حقيقة هامة ، هى أنه هناك أشياء لا لزوم لها . ولكنها كانت قصيدة جافة لم تعجب أصدقاءه . ولم يكن يخجل من نقدهم ، وكان يعاود الكتابة من جديد .. وفى كل مرة كانت تتضح ميوله المبكرة .. فهذا كاتب ، يكتب أفكاراً ، ولا يعرض صوراً . وفى كتاباته صراعات فكرية ، والأفكار تتزاحم وتأخذ بتلابيب بعضها البعض . وهنا موضع الإثارة ، ولكن كان ينقصه الأسلوب .

وكانت قصته الأولى « خرافة الحقيقة » ، وهذا هو اسمها ، تقوم على فكرة ، أن الحقيقة تبدأ من التجارة ، والتجارة وثيقة الصلة بالديموقراطية ، والمواطنون عند ما يتبادلون السلع ، يلزمون أنفسهم ، بإصدار أحكام متشابهة على العالم ، والعلم هو الذى يعبر عن أفكارهم ، والنخبة تحتقر الإجماع ، والتجار يصنعون بالإجماع أفكاراً ، هى ما يسمى بالأفكار العامة .

وكان سارتر يحتقر الاثنين : إجماع التجار ، وإجماع العلماء . كان بوجدانه مع هؤلاء الذين يصفهم تنيسى وليامز « بالجنس الشارد The Fugitives » — هؤلاء المطرودين من المدينة — الخارجين على قانونها — القانون العام والخاص — قانون النخبة وقانون الجماهير — هؤلاء التائهين ، صناع المعجزات ، الوحيدين ، الضاربين فى الفلاة ، أصدقاء القمر والسهاد ، المبددة نظراتهم ، المبعثرة تأملاتهم ، يتلمسون بها وجه الحقيقة ، ويرسمون فى خيالاتهم صورته .. وهكذا لم يمنح رؤية الحقيقة إلا للفنان ، والكاتب ، والفيلسوف ..

* * *

ويستمع أصدقاؤه إليه مبهورى الأنفاس ، محدقى النظرات ، تدق قلوبهم بسرعة ، وتهتف ألسنتهم معاً . .

— مرحى ! لقد وجدنا أخيراً من يعبر عنا ! !

* * *

أخيرا وجدوا النظرية التى تناسبهم فاعتنقوها بحماس ! وأخيرا أحسوا أنهم ينصتون إليه ، برغمهم ، فأصبحوا حواريه ، يسألونه ، ويستفسرون منه ، وينقلون عنه ، ويتناقلون ما يقول ! !

وكصورة دوريان جراى ، بدأت الخطوط ترتسم على جبينه من يومها . لقد بدأ قلبه يعرف القلق وخوف المصير وسهاد الحقيقة . .

أيمكن ان يكون هذا ؟ أيمكن أن يكون صاحب دعوة ، وله مؤمنون !

كان هذا السؤال يؤرقه وكانت المسئولية تضجره وتؤلمه. ولكن هيهات .. إنه لم يصل بعد . ودون الدعوة جبال القمر وحمم فولكان كما يقولون !

فإلى الدير من جديد ..

ويقرأ سارتر التجربة السوفيتية ، ويعجب « بزاميانين » ، ولكنه يعتبره وثيقة على إفلاس الأسلوب السوفيتى . حقيقة أن روايته « نحن الآخرين » تدل على أن الفردية ما تزال تعيش فى التجربة السوفيتية . ولكن نهاية الكتاب تدل أيضاً على إفلاس هذه التجربة ، فالنهاية وثيقة استقالة من الكاتب لالتزامه . ولكنه يشرق بالأمل عنـــد ما يقرأ « اهرنبورج » و « بلتيناك » ، ويرى روائع « بوتمكين » « وعاصفة على آسيا » فى السينما ، وعندها يحس بأن هذا البلد ، لا يمكن أن يتحول معنى الحضارة لديه ، إلى حضارة مهندسين ،

ولا يمكن أن تكون الآلة هى سيدة الإنسان ، وهى البطل ، وهى الفيصل الأخير فى دراما الإنسان ! !

وتغرب شمس ، وتشرق أخرى ، ويذهب إلى ألمانيا ، ويقرأ « موريتزيوس » لوازرمان و « برلين الكسندر بلاتز » لدوبيت ..

ثم يلحقهما « بابيت » الأمريكية ، المسطحة فى نظره ، وروايات « د . هـ . لورنس » . . وتتابع الكتب كتاباً بعد كتاب ، ونظرية بعد نظرية .. « حياتى لتروتسكى » .. « امبيدوكل لهولدرن » .. « شقاء الضمير لجان ڤال » .. « يوميات تفوى لكير كجورد » .. « ادجار والاس ، وكروفت وأوبنهايم » ..

وكانت السينما لديه فناً جديداً ، ينضاف إلى بقية الفنون ويبزها . ولذلك فقد أحبها سارتر كثيراً ، ولم يكن يفته فيلم جيد واحد ، مما سنرى اثره البالغ بعد ذلك ، فى اعماله المسرحية ، التى اقتبس فيها من السينما الكثير ، وكان يجرى إلى الأحياء الشعبية ، ليرى فيلماً جيداً يعرض هناك ، وألف جماعة من أصدقائه للدفاع عن الأفلام الجيدة ، ومناقشتها . وكان يمج أفلام الفن ، ويحب مشاهدة أفلام رعاة البقر ، والقصص البوليسية . . وكانت هذه السنين ، سنين تجربة الفيلم الناطق .

وكانت هناك أفلام جيدة بحق . . . « عاصفة على آسيا » . . « السيمفونية الزوجية » . . « أضواء المدينة » . . وكان الفيلم ينتهى ، والأنوار تضاء ، ليجد سارتر نفسه وقد ملأت الدموع عينيه . كان سارتر يحب السينما حباً جماً ، وكان يعتبرها وحدة متكاملة ..

ويعود إلى القراءة .. « هويتمان » .. « بلاك » . . « بيتز » « فرجينيا وولف » .. « هنرى جيمس » . . « سنكلر لويس » « شرود اندرسن » . . « ماركس » . . « انجلز » . . « ديكارت » « كنت » . . « هيجل » . . « نيتشه » . . « شوبنهور » . . ويغوص فى الفلسفة . . إلى الأعماق — الأعماق البعيدة — ثم يخرج إلى السطح ، ليأخذ نفساً عميقاً ، وليشم رائحة امرأة ..

كانت هذه المرة هى « بانيز » ... ثم « كاميل » .. وفى كل مرة كانت له علاقة بامرأة كان يعديها بعبقريته ، ويجرى لها عملية استئصال لتفاهتها . وما عرفته امرأة إلا وصارت فى يوم من الأيام شيئاً .. هكذا صارت بانيز ، وهكذا ستصبح كاميل ..

كانت كاميل هى « إيفيش » فى رواية دروب الحرية ، وكان سارتر يحبها لجمالها ، وتلقائيتها ، وعواطفها الملتهبة . ويخيل

لسيمون أنها فقدته ، وتألم ، وتكتب فى مذكراتها وهى ثملة .

ـــ هأنذا من جديد ـــ لا أفكر فى شىء ـــ كومة برمتها من الانتحارات الصغيرة الفرحة . ربما لم يكن هناك ما يستحق أن أعيش من أجله .. أن أعيش فى راحة وسعادة ! لكم أتمنى أن أتعلم الوحدة من جديد ، فقد مضى وقت طويل لم أكن فيه وحيدة !

أما فى الحقيقة ، فقد كانت سيمون تخشى الوحدة ، أكثر مما كانت تطلبها وتتمناها ! ! ويذعر سارتر لحالها ، فيعرض عليها الزواج . . ولكن العهد ! . . لا . . الزواج لا يمكن ! !

وتبدأ العلاقة بينهما ، من جديد ، قوية مشرقة رياقة . وينتهى سارتر من كتابه « أسطورة الحقيقة » . وأخذه صديقه « نيزان » إلى دار « أوربا » للنشر . ولكن « روبير » فرانس أعاد الكتاب لسارتر بعد قراءته ، ورفض نشره .

وكان روبير فرانس على حق فى رفضه له ، فلقد كان الكتاب رغم حيوية أفكاره ، مصاغا فى أسلوب كلاسيكى ردىء متصنع جامد . ولم ييأس سارتر ، بل ألقى بالكتاب فى درج مكتبه ، وبدأ فى كتابه الثانى ..

وكان كتابه الثانى عودة به إلى حياة التجربة والتحصيل .

كان كلما أقبل على الحقيقة ، ورد عن أبوابها ، يتحوصل على نفس الفنان والفيلسوف ، ويصنع من نفسه راهب الفكر ، يحتر أفكاره من جديد ، ويلخصها من جديد ، ويلق ببعضها ، ويوضح البعض الآخر. ويبنى ويهدم . . ثم يعود ليقرأ . قرأ « بروست » و « جويس » ولأول مرة ، يسمع أن هناك أديبا كبيراً اسمه « كافكا » ! ويضحك سارتر للاسم الغريب ، ويدهش . . لو كان « كافكا » بحق كاتبا كبيراً ، لكنت قد قرأته ! ولكن « كافكا » كان كاتبا كبيراً ، ولم يكن سارتر قد قرأه ! إذن كانت كل هذه السنين سنين إعداد وتحصيل . لحظات ما قبل رفع الستار ، لنشهد المسرحية الحقيقية . .

ويلوح لراهب الفكر ، من بعيد ، قبس ضوء ، يعجب لأمره ، فيقترب منه ، ويتفحصه ، ويدهش .

كان هذا القبس هو « كير كجورد » . . وكانت ترجمات له قد بدأت تظهر فى السوق . ولكن شيئا ما كان يدفعه إلى قراءته ، لولا سماعه وإعجابه « بالظاهراتية أو الفينومونولوجية » الألمانية . وكان « ريمون آرون » ، صديقه ، قد أمضى سنة فى المعهد الفرنسى ببرلين ، ودرس هسرل ، صاحب الظاهراتية وعاد إلى باريس ليحدث سارتر عنه .

كان آرون يجلس إلى كأسه . وسارتر أمامه . ونظر آرون إلى الكأس ، ثم إلى سارتر ، وقال له :

ـــ أترى يا صديقى العزيز هذا الكوكتيل ؟ لو كنت من الظاهراتيين لاستطعت أن تتحدث عنه ، ولكان حديثك فلسفة ! .

واصفر وجه سارتر . كان هذا ما يتمناه : أن يتحدث عن الأشياء كما كان يلمسها . وأن يكون ذلك فلسفة . وأقنعه آرون بالظاهراتية ، وتجاوبها مع ميوله ، ونصحه بالسفر إلى برلين لدراسة « هوسرل » .

واشترى سارتر كتاباً عن « هوسرل » ، وعلت ضربات قلبه ، وأخذ يتصفح الكتاب فى الطريق . كان عجلا لمعرفة الظاهراتية .. وعندما انتهى من الكتاب ، أحس بالراحة .. ومعها ضرورة الرحيل للحج .. أخيراً وجد ضالته ، وارتاح ضميره .. أخيراً عثر على ملهمه . واتجه بقلبه إلى كعبته .. واستعد للسفر إلى برلين . .

كان سارتر قلقا ، جرب كل المذاهب ولم يرتح لواحد منها . وقرأ فى المذاهب الإنسانية ، وكرهها أيضاً . لم يكن يرتاح لمذهب يحب أو يكره هذه الصفة ـــ الإنسان ـــ وكان يكره

المذاهب الإنسانية ، ويدهش لأمرها — هل من الممكن حقا أن يحب الفرد شيئا « اسمه الإنسان » ؟ ! أو أن يتملقه ؟ ! أو أن يكرهه ؟ ! ولكنه ما كان يحقد على البشرية . كان يدين فقط هؤلاء الذين يتشدقون بمثل هذا القول : كن إنسانيا ! الإنسانية تقتضى هذا ! كأن من الممكن أن يكون الإنسان حيوانا مثلا ؟ ! وكان يقول :

— فى يوم سألت سيدة أحد رجال الفكر قائلة : ألا تحب القطط يا سيدى ؟ وأجابها الرجل بالنفى . ودهشت المرأة وقالت : ألا تحب الحيوانات ؟ وأجابها الرجل : بل لا أحب الذين يحبون الحيوانات ! !

وكان هذا هو موقف سارتر بالنسبة للانسانية كحركة . وذهب سارتر إلى برلين ، وهو على هذا الحال من عدم الإيمان والشك ، ورغبة اليقين .. وهناك أحس بالحياة .. كان يعيش ، وكان حرا ، ولأول مرة يكتب قصة يحس معها بأنه يكتب شيئا ذا قيمة .. شيئا لا يمكن أن يندثر أو يتوه — وكان يقرأ هوسرل — وغير ذلك ، كان قد بدأ علاقة غرامية جديدة .. وكان اسمها هذه المرة « مارى جيرار » ! !

كانت مارى زوجة أحد طلاب علم اللغات بمعهد برلين .

وكان زوجها مهووسا بدراساته ، ويهملها . وكان سارتر وحيدا ، فوجد فيها ضالته ــ فالمرأة حالمة ، ضائعة ، تدخن ، وتعيش ليومها ، تائهة فى ضبابات تمزقها . ولم تكن تؤمن بهموم القلب ، ولا هموم الترف ، ولا هموم الأغنياء ، فالبؤس الحقيقى هو بؤس الفقر والجوع والألم الجسدى . أما السعادة فلا معنى لها .

وكانت جميلة ، تبتسم فى هدوء وجاذبية . وكانت ذاهلة مفكرة تائهة ، وهذا ما جذب سارتر إليها . كان يحب هذا النوع من النساء ، يجذبنه ويأسرنه ، ويتهافت عليهن تهافت الفراش على النار ، ولكنه ما كان أبداً يحترق ! ! فلم تكن المرأة هدفه قط .. كان يأتيها ، كما كان يفعل بطل نيتشه .. البطل لإعلاء قيمة الحياة ، والبطل لا يحب الزائد فى حلاوته ، وهو لذلك لا يحب المرأة لأنها زائدة الحلاوة .. والبطل يدخل المعركة ــ معركة إعلاء قيمة الحياة ــ وهو بين فصول المعركة يلهو ، والمرأة هى لهوه ، فالمرأة لعبة البطل ! !

وكان سارتر ينكب على الكتب ، الفلسفية منها بوجه خاص ، فى هذه المرحلة . وكان يبدو شاحب الوجه زائغ النظرات ، مرهق القلب ، يضع يده من آن لآخر على صدره ، ويرتكز على أى شىء يصادفه ويتنهد فى تعب .

وذات يوم فى « روان » ، أحس بمطارق تنهال على رأسه ، وهلوسات تخطر على ذهنه ، وصوت يتحدث إليه من داخل دماغه .

— سيمون . إننى فى بداية الجنون . هناك صوت يحدثنى !!

ولكن سيمون كانت تنفى له بشدة فكرة الجنون ، وكانت تعزيه بأنها مجرد أوهام ونتاج إرهاق .

— إن جنونك الوحيد هو اعتقادك أنك مجنون . .

— سترين يا سيمون ..

وزادت عليه العلة ، وأسرعت كتاباته ، وازور عن الجميع . كانت حالته هى حالة روكنتان فى قصته الغثيان . وكان لا يتكلم ، ولا يتنبس ببنت شفة ، ويسير إلى جوار سيمون ساهما مطرقا ، لا يريم . .

وانتهت الغثيان ودفع بها إلى جاليمار . وكان اسمها « ملانخوليا » فنصحه جاليمار بتغيير العنوان إلى الغثيان . ونشرت القصة وبدأ سارتر يضىء .

لقد كان ما أتاه هو إرهاصات الدعوة ، وعانى ما كان يعانيه أصحاب الدعوات . كان ما يشبه الجمان يسيل من وجهه ،

وجبينه ، وكان يتكىء على أى ما يصادفه ، ويصفر وجهه ، وتتوه نظراته .

لقد حمل بالبذرة فى برلين ، ونقلها إلى باريس ، وتعهدها جنينا حتى أخرجها قصة من أروع ما كتب ، فكان ميلاد الغثيان ، وميلاد كاتب عبقرى ، وفيلسوف من أكبر الفلاسفة لأكبر دعوة فى القرن العشرين .

هو جان بول سارتر ودعوة الوجودية .

ويرتفع الستار لنشهد الفصل الأول . . .

* * *